

أَوْسَعْتُهُمْ سَبًّا وراحوا بالإبل، أَوَّلُ مَنْ قَالَه كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ، كَانَ لَهُ إِبِلٌ يَرعَاهَا، فَأَغَارَ عَلَيْهَا الْحَارِثُ بْنُ وَرْقَاءَ فَاسْتَأْفَقَهَا، وَصَعِدَ كَعْبٌ عَلَى أَكْمَةِ، وَجَعَلَ يَشْتُمُ الْحَارِثَ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ. يُضْرَبُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حِيلَةٌ وَقَدْ ذَهَبَ مَالُهُ^(١).
الْيَوْمَ خَمَرٌ وَغَدًا أَمْرٌ، أَوَّلُ مَنْ قَالَه أَمْرُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ، وَمَعْنَاهُ: الْيَوْمَ يَوْمٌ خَفِضَ وَدَعَا، وَغَدًا جِدٌّ وَاجْتِهَادٌ^(٢).

فصل في ذكر طوائف العرب وما كانوا يعتقدون من الأديان

وكانت العربُ في الجاهليَّةِ تدين بأديانٍ، فمنهم مَنْ كان يدين بالله تعالى، وبالْيَوْمِ الآخر، والبعث، والنشور، وأن الله يُثيبُ الْمُطِيعَ وَيُعَذِّبُ الْعَاصِي، كَقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ وَمَنْ كَانَ فِي الْفِتْرَةِ.
ومنهم مَنْ كَانَ يُثْبِتُ حَدَثَ الْعَالَمِ، وَقَدَّمَ الصَّانِعَ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى.
ومنهم مَنْ أَقَرَّ بِالْخَالِقِ، وَكَذَّبَ بِالرُّسُلِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَقَالَ بِالذَّهْرِ.
ومنهم مَنْ تَنَصَّرَ وَتَهَوَّدَ وَتَمَجَّسَ.
ومنهم طَائِفَةٌ عَبَدَتِ الْكَوَاكِبَ، وَقَالَتْ: هُمْ بَنَاتُ اللَّهِ.
ومنهم مَنْ كَانَ يُثْبِتُ التَّوْحِيدَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَيَتْرَكُ التَّقْلِيدَ، كَعَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ وَغَيْرِهِ، وَمَعَ هَذَا كَانُوا يُعَظِّمُونَ الْأَصْنَامَ^(٣).

فصل في أخبار قوم منهم أهلكهم الله تعالى

فمنهم عادٌ وَثَمُودٌ وَطُسَمٌ وَجَدِيسٌ، وَلَمَّا هَلَكَ هَؤُلَاءِ تَفَرَّقَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْقَبَائِلِ، فَنَزَلَ بَعْضُهُمْ مَكَّةَ، وَبَعْضُهُمُ الطَّائِفَ، وَنَزَلَ يَثْرِبَ بْنُ مَهْلَإِيلَ بْنِ إِرْمَ مَكَانِ الْمَدِينَةِ فَنَسَبَتْ إِلَيْهِ.

(١) أمثال أبي عبيد ٣٢١، والفاخر ١٧٦، والعسكري ١١٦/١، والميداني ٣٦٣/٢، والزخشي ٤٣١/١.

(٢) أمثال أبي عبيد ٣٣٣، والعسكري ٤٣١/٢، والميداني ٤١٧/٢، والزخشي ٣٥٨/١.

(٣) مروج الذهب ٢٥٦/٣.

ومنهم داسم قبيلة عظيمة، خرجوا إلى الشام، فنزلوا أرض السماوة بين العراق والشام، وكانت عمارة وبساتين ومياه تتدفق، فأقاموا مدة، ثم طغوا وفسدوا، ومال قوتهم على ضعيفهم، فبعث الله عليهم ريحاً سوداء في ليلة مظلمة فنسفتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وبيست الثمار، وغارت المياه كأن لم تكن بالأمس^(١). وأهلك الله أمماً كثيرة بعدهم لما طغوا وبغوا، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

فصل

في مذاهب العرب في النفس والروح، والغيلان، والسعالى، والهواتف، والنسناس، والزجر، والسائح، والبارح، والكهانة، والسحر، والعائف، والقائف. فأما النفس فقال بعضهم: هي الدَّم، وقال بعضهم: هي الروح، وقالت طائفة: النفس شبه طائر، ينبسط في جسم آدمي، فإذا مات لم يزل مُطيفاً به يصدح على قبره، وهو الهام، ثم يكبر حتى يصير كالبوم، وهو مُتَوَحِّش من الناس، يسكن الخراب والتواويس، وعند مصارع القتلى^(٢).

وأما الغول: فقد زعم قوم من العرب أنها تتراءى لهم في البراري، وتظهر في أنواع من الصور، فتخاطبهم ويخاطبونها، وربما باضعوها.

وقال تأبط شراً: [من المتقارب]

فأصبحْتُ والغُولُ لي جارةً فيا جارتِي أنتِ ما أهْوَلَا
فطالِبْتُهَا بُضْعَهَا فالتَوْتُ بوجهِ تَغُولٍ فاستَغُولَا
فَمَنْ كَانَ يَسْأَلُ عن جارتِي فإنَّ لها باللَّوى مَنْزِلَا^(٣)
وقال عمر رضي الله عنه: كنتُ في طريق الشام قبل الإسلام فغالَتني الغُول، فضرَبْتُها بسيفي فانْهَزمتُ^(٤).

(١) انظر مروج الذهب ٣/٢٨٩.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٠٩-٣١٢.

(٣) ديوانه ١٦٤-١٦٦، ومروج الذهب ٣/٣١٤-٣١٥.

(٤) مروج الذهب ٣/٣١٦.

وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْغُولِ وَالسَّعْلَةِ، قَالَ الشَّاعِرُ: [من الطويل]

وساخِرةٌ مِنِّي ولو أن عَيْنَهَا رَأَتْ ما أَلَاقِيهِ مِنَ الْهَوْلِ جُنَّتْ
أَتَيْتُ وَسِعْلَةً وَغُولٌ بِقَفْرَةٍ إِذَا اللَّيْلُ وَاوَى الْجِنَّ مِنْهُ أَرْنَتْ^(١)
وعلى هذا القُطْرُبُ والغَدَّارُ وما شاكل ذلك، والغالب عليها أنها تظهر بأكناف
اليمن وتهامة وصعيد مصر والأماكن البعيدة، وقد تغلب على الإنسان فتكحه، فيُدَّودُ
دُبْرَهُ فيموت.

ومن أمثال أهل تهامة: أَمْنُكَوح أم مَدْعُور، لَمَنْ رَأَى فِي طَرِيقِهِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ
قَالَ: مَدْعُورٌ قَالُوا: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، وَإِنْ قَالَ: مَنُكَوحٌ يَشْوَ مِنْهُ.

وروي عن وَهْبِ بْنِ مُثَنَّبٍ أَنَّهُ قَالَ: أَصْلُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْمُتَشَبِّهَةِ أَنْ إِبْلِيسَ خَلَقَ اللَّهُ لَهُ
زَوْجَةً مِنْ نَارِ السَّمُومِ فَتَكَحَّهَا، فَبَاضَتْ بَيْضاً، فَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ^(٢).

وَأَمَّا الْهَوَاتِفُ، فَالْهَتَفُ: الصَّوْتُ يُسْمَعُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرَى جِسْمُهُ.

وَأَمَّا النَّسْنَسُ، فَهُوَ جِنْسٌ مِنَ الْخَلْقِ يَثْبُ على رِجْلٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ بِحَضْرَمَوْتَ
وَالْيَمَنِ، وَحَمَلَهُ حَنِينُ بْنُ إِسْحَاقَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ مِنْ أَرْضِ حَضْرَمَوْتَ وَهُوَ حَيٌّ.

قَالَ حَنِينٌ: هُوَ عَلَى صُورَةِ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَنْ وَجْهَهُ فِي صَدْرِهِ، وَلَهُ نَصْفُ وَجْهِهِ، وَإِلَيْهِ
كَإِلْيَةِ الْغَنَمِ، وَأَهْلُ حَضْرَمَوْتَ يَأْكُلُونَهُ، وَلَحْمُهُ لَذِيذٌ، وَلَا يَتَوَلَّدُ إِلَّا فِي بِلَادِهِمْ.

وَالْعَرِيدُ: دَابَّةٌ مِنْ جِنْسِ النَّسْنَسِ.

وَقَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ التَّمِيمِي: قَدِمْتُ حَضْرَمَوْتَ، فَنَزَلْتُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَكْبَرِ
أَهْلِهَا، فَتَذَكَّرْنَا النَّسْنَسَ، فَقَالَ لَعَلَّمَانَهُ: صِيدُوا لَنَا مِنْهُ، فَصَادُوا وَاحِداً، فَلَمَّا رَأَى
صَاحِبُ: أَنَا بِاللَّهِ وَبِكَ، فَسَأَلْتُهُ فَأَطْلَقَهُ. ثُمَّ خَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَخَرَجَتْ مَعَهُ أَتَصِيدُ، وَإِذَا
بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْدُو، وَلَهُ ثَدْيٌ كَتَدْيِ الْمَرْأَةِ، فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ الْكِلَابَ فَأَمْسَكُوهُ وَذَبَحُوهُ،
فَقُلْتُ: مَا أَشَدَّ حُمْرَةَ دَمِهِ، فَصَاحَ نَسْنَسٌ آخَرٌ مِنْ شَجَرَةٍ: مِمَّا يَأْكُلُ السَّمَاقُ، فَأَخَذُوا
الْآخَرَ فَذَبَحُوهُ^(٣).

(١) البیتان لعبد بن أبوب العنبري في الحيوان ١٦٠/٦، ومروج الذهب ٣١٨/٣.

(٢) مروج الذهب ٣١٩/٣-٣٢٠، وانظر عجائب المخلوقات ٣٩١-٣٩٩.

(٣) مروج الذهب ١٧٠-١٧٠/٤، وانظر أمثال السدوسي ٦٨.

وأما الزَّجْرُ: فهو العِيافة، وهو ضَرْبٌ مِنَ التَّكْهُن.

وأما السَّانِح: فهو ما وَلَّاكَ مِيَامُهُ مِنْ ظُبِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِ، والبارح بخلافه. والعرب تَتِيَمْنَ بالسَّانِح وتَتَشَاءَم بالبارح^(١).

وخرج جماعةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْصِدُونَ سَيْدًا فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ، فَسَنَحَ قَطِيعٌ مِنَ الظُّبَاءِ مُعْتَرِضَةً لِلرَّكْبِ، ثُمَّ كَرَّتْ رَاجِعَةً، فَقَالَ زَاجِرٌ مَعَهُمْ^(٢): [مِن الطَّوِيلِ]

أَلَمْ تَدْرِ مَا قَالَ الظُّبَاءُ السَّوَانِحُ عَطَفْنَ أَمَامَ الرَّكْبِ وَالرَّكْبُ رَائِحٌ
فَكَبَّرَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الزَّجَرَ مِنْهُمْ وَأَيَّقَنَ قَلْبِي أَنَّهُنَّ نَوَائِحُ
ثُمَّ قَالَ: قَضَى الرَّجُلُ، قَالُوا: مِنْ أَيْنَ لَكَ؟ قَالَ: أَمَا رَأَيْتُمُ الظُّبَاءَ سَنَحَتْ، ثُمَّ
رَجَعَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَتَمُّ، فَجَاؤُوا فَوَجَدُوا الرَّجُلَ قَدْ
لُدَّغَ فَمَاتَ^(٣).

وأما الكَهَّانَةُ وَالسَّحَرُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، يَسْتَعْدِمُ الْكَاهِنُ وَالسَّاحِرُ الشَّيْطَانَ، بِفَنُونِ
الرُّقَى وَالْأَسَامِيِّ وَالْبُخُورَاتِ، فَيُخْبِرُهُ بِالْغَائِبَاتِ، وَقَدْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ مَبْعَثِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْعَدُ السَّمَاءَ، فَتَسْتَرْقُ السَّمْعَ، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَبَتْ حِرَاسَهُ
الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ.
وَالسَّحَرُ حَقٌّ.

ذِكْرُ أَسَامِيِّ الْكُهَّانِ بَعْدَ الْمَبْعَثِ

وَهُمْ: شَقٌّ، وَسَطِيحٌ، وَسَمْلَقَةٌ، وَزُوبَعَةٌ، وَسَدِيفٌ، وَالْأَفْعَى الْجَرَهْمِيُّ، وَعِمْرَانُ
أَخُو عَامِرٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَامِرٍ الْخَارِجُ مِنَ الْيَمَنِ وَكَاهِنَتُهُ طَرِيفَةٌ، وَكَاهِنَةُ بَاهِلَةٍ، وَكُهَّانُ أُخْرٍ.
وَالْعَرَّافُ: الْكَاهِنُ، وَقِيلَ: هُوَ الطَّيِّبُ.

وأما العِيافة فهي: زَجْرُ الطَّائِرِ، وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَسْمَائِهَا، وَمَسَاقِطِهَا، وَأَصْوَاتِهَا،
وَيُقَالُ لِلْعَائِفِ: الْمُتَكْهِنُ.

(١) الصحاح (زجر، سنح، برح).

(٢) هو الراعي النميري، والبيتان في ديوانه ٤٥.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٤٠-٣٤١.

وأما القيافة فهي: معرفة الآثار^(١)، وهي لا توجد إلا في الفُطْناء من العرب. وكانت كلُّ قبيلة مخصوصة بشيء، فلبعضهم الكهانة، وللبعضهم الزَّجَر والفأل، وللبعضهم القافة، والشَّبه يكون في القدم غالباً. وكانت القيافة في مُضر وربيعة وأنمار وأولاد نزار، وكذا في إِياد ومَذَجَج، وهم اليوم بالحجاز وتهامة، وبالْجَفار بين مصر والشام.

فصل

وقد كان لهم العَدْوَى، والطَّيْرَة، والصَّفَر، ثم انتسخ الجميع بقوله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيْرَة، ولا هامة، ولا صَفَر»^(٢).

فصل في أطعمة العرب

منها البَسِيسَة، وهي كلُّ شيء خَلَطْتَه بغيره من غير طَبَخ. ومنها البَكِيلَة، وهي أن يُخلط السَّويق بماء وتمر. ومنها الحُرْس، وهي طعام الولادة. والإعذار: طعام الختان للجارية والغلام. والنَّقِيعَة، طعام القادم من السَّفر. ومنها الحريرة، وهي أن تُنصَب القَدْر، ويُقَطَّع اللَّحْمُ صِغاراً على ماء كثير، فإذا نَضِجَ دُرَّ عليه الدَّقِيق، وإن لم يكن فيها لَحْم فهي عَصِيدَة^(٣). ومنها الرَّيِّكَة، وهي تَمْرٌ يُعَجَّنُ بِسَمْنٍ وَأَقِط، وفي المثل: غَرَّثَانِ فَارُبُكُوا لَهُ، لأنَّ أعرابياً أتى أهله، فَبَشَّرَ بِغُلامٍ وُلِدَ لَهُ، فقال: ما أَصْنَعُ بِهِ، أَكُلُهُ أَمْ أَشْرِبُهُ؟ فقالت امرأته: غَرَّثَانِ فَارُبُكُوا لَهُ، أي: جَائِعٌ فَأَطْعِمُوهُ^(٤).

(١) الصحاح (عيف، قيف).

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر العقد ٦/ ٢٩١-٢٩٢، وإصلاح المنطق ٣٨٣، وفقه اللغة ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٥.

(٤) إصلاح المنطق ٣٨٢-٣٨٣، والصحاح (ربك)، وفقه اللغة ٤٥٣، والمثل في جبهة الأمثال ٨٢/ ٢، ومجمع الأمثال ٥٦/ ٢.